

عمر راسم في ميدان الصحافة

أ.د. زهير إحدادن

قسم الإعلام والاتصال - جامعة الجزائر

نستطيع أن نقول أن شخصية عمر راسم عظيمة وجليلة في كثير من الميادين ولكنها مغمورة - يا للأسف - ولعل هذه الندوة ستظهر - إن شاء الله - الجوانب البارزة لهذه الشخصية التي أعطت للجزائر ما كانت تملكه من قدرة وكفاءة وعبقرية.

وإنني سأتطرق في هذه المداخلة إلى نشاط عمر راسم في الميدان الصحفي في السنوات الأولى من القرن العشرين الميلادي، والمعروف أن في هذه السنوات لم يكن للجزائريين - نظرا لظروفهم السياسية - نشاط ملحوظ في الميدان الصحفي، كانت هذه الفترة السيطرة الاستعمارية تكاد تكون مطلقة رغم وجود الحاكم الليبرالي جوناو وكانت الصحافة الاستعمارية باللغة الفرنسية مزدهرة متنوعة فيها اليومية والأسبوعيات والدوريات والمجلات وكانت هذه الصحافة منتشرة في جميع أنحاء الجزائر.

وكان الجزائريون المسلمون، يعني الأهالي يتحاشون الميدان الصحفي ولا يخوضون غماره إلا قليلا وكانت مساهمتهم لا تتعدى مشاركة بعض الأعيان في العمل في الجريدة التي كانت تصدرها

السلطات الاستعمارية وهي جريدة "المبشر" في التحرير وفي المطبعة أو بعض المبادرات الخافتة مثل جريدة "المنتخب" في قسنطينة أو "المغرب" و"كوكب افريقيا" في مدينة الجزائر.

ولعل هذا النشاط الضعيف من جهة وأهمية الدور الذي كانت تقوم به الصحافة الاستعمارية من جهة أخرى هو الذي جعل عمر راسم ينتبه إلى ضرورة تكثيف هذا النشاط وإخراجه من سباته. ويجب أن نشير أولاً أن عمر راسم كان يشغل في جريدة "المبشر" ولست أدري ما هو نوع هذا العمل ولا حجمه ولعل بعض الإخوان الباحثين قد درس أو سيدرس هذا الجانب من نشأة عمر راسم ومهما يكن فإن مشاركة عمر راسم في جريدة "المبشر" أكسبته خبرة جعلته يثق في نفسه ليخوض هذا الميدان.

فبدأ بمحاولة فاشلة وهي إصدار جريدة "الجزائر" ثم واصل نشاطه بنوع من التوفيق في جريدة "الحق" الوهرانية التي كانت تصدر أصلاً باللغة الفرنسية وأتم هذا النشاط بالتوفيق في إصدار جريدة "ذو الفقار" التي لم تدم إلا فترة قصيرة ثم بعد هذا النشاط قام يدعو ويحث المسلمين على عدم المشاركة في التجنيد في الجيش الفرنسي وذلك بتوزيع المناشير وتعليق المعلقات على الجدران مما جعل السلطات الاستعمارية تقوم باعتقاله وسجنه لمدة طويلة قبيل الحرب العالمية الأولى وبعده بعدة سنوات، هذا هو باختصار نشاط عمر راسم في ميدان الصحافة والدعاية.

ولعل ما يلفت النظر في هذا النشاط ونريد أن نؤكد عليه هو فشله في إصدار جريدة "الجزائر" ونجاحه في جريدة "الحق الوهرانية". أما جريدة "الجزائر" فهي معروفة ولم تكن صدرت بعد، وهذا غريب! فجريدة "الجزائر" لم تصدر، وليس هناك العدد الأول منها، وإنما هي معروفة بظهور عددين متتاليين، الأول منها يحمل رقم "01" والثاني رقم "02" وهما موجودان في أرشيف المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس، وهذه طريقة تستعمل في النشاط الصحفي وهي أن تسبق صدور أي جريدة بأعداد تجريبية لمعرفة إمكانية نجاح الجريدة وقد استعمل عمر راسم هذه الطريقة واكتشف وتيقن أن مبادرته هذه لا يمكن لها أن تتجح فتوقف ولم يصدر الجريدة والسبب الرئيسي في هذا الفشل هو العجز المالي.

وهذا العجز المالي ندركه من خلال طريقة التوزيع التي لجأ إليها عمر راسم فقد قام بطبع العدد "01" ووزعها على عدد من الشخصيات اعتبرهم كمشاركين وطلب منهم الاشتراك في المجلة ودفع قيمة الاشتراك السنوي وهي 7 فرنكات وسعر الجريدة هو 10 سنتيمات.

ويبدو أن عدد الشخصيات التي دفعت هذا الاشتراك قليل جدا إذ نجد عمر راسم يستأنف العملية في العدد "02" ويذكر فيه أن العددين وزعا بصفة مجانية ويضيف فيقول: "كل من قبل هذا العدد يعتبر مشتركا في المجلة". والظاهر أن هذه الطريقة لم تتجح فلم يتمكن عمر راسم من جمع العدد الكافي من الاشتراكات لإصدار

جريدة "الجزائر" بل نجده يعتذر للقليل ممن دفع الاشتراك مسبقا فيقول في هذا العدد "02" ويسميه "الملحق" "ولطلب الكثير من الأحباب بادرنا بإظهار هذا الملحق لكي لا يتبادر لمن دفع قيمة الاشتراك مقدما أننا قعدنا عن العمل".

وملخص العملية أن عمر راسم قام بجمع الاشتراكات قبل إصدار الجريدة ولكن بما أن هذه الاشتراكات كانت قليلة وضعيفة، اضطر إلى إصدار الملحقين للوفاء بما وعد به الذين دفعوا الاشتراك مسبقا، كما هو مبين في كلامه ثم توقف عن إصدار هذه الجريدة للعجز المالي.

والغريب في كل هذا أننا نجد عمر بن قدور الجزائري من أصدقاء عمر راسم، يكتب في جريدة الأخبار العدد "13552" المؤرخ في 1908/11/15: "في هذه الأيام اطلعنا على جريدة تحت عنوان "الجزائر" مديرها الأديب السيد عمر راسم - ولعمري- إنها جريدة أدبية علمية عظيمة نافعة لمن أراد التعلم وتهذيب نفسه فنشكر فضل منشئها وندعو لها بالقبول والنجاح ونحث إخواننا الطلبة أن يشتركوا فيها والله الموفق".

والظاهر أن هذا النداء الموجه للطلبة لم يجد صда كما لم يلبه الأعيان والأغنياء ولعل هذا الفشل هو الذي جعل عمر راسم يقوم فيما بعد بحملة مركزة ضد الأغنياء ويصفهم بالبخل وأنهم ابتعدوا عن الدين الإسلامي.

وقد اطلعت على العديدين من " الجزائر " في المكتبة الوطنية الفرنسية وسمى عمر راسم هذين العديدين بـ: "الملحق الأول للمجلة" و"الملحق الثاني للمجلة"، "الملحق الأول" يحمل تاريخ 01 شوال 1326 الموافق لـ 27 أكتوبر 1908 ويقول أنها تصدر في الأول والخامس عشر من كل شهر إفرنجي، ويحررها نخبة من أشهر الكتاب والمسؤول هو عمر راسم وليس هناك ذكر للعمرى كما جاء في مقال عمر بن قدور وعنوان الجريدة هو 2 نهج موقادور، الجزائر. وهي "مجلة علمية، أدبية، ترفيهية" وجاء اسم "الجزائر" داخل هلال.

والمجلة تتضمن أربع صفحات: في الصفحة الأولى توجد عنوان الجريدة وكل ما ذكرناه سابقا ومقال افتتاحي لعمر راسم يقدم فيه الجريدة ومقال آخر لطنطاوي جوهري المعري بعنوان "نهضة الأمة وحياتها" وهو ما يبين أن عمر راسم كان على اتصال ليس بالكتاب الجزائريين فقط ولكن بالكتاب في العالم الإسلامي، ومن هنا شهرته وصيته.

وفي الصفحتين الثانية والثالثة من الجريدة يوجد مقالات موزعة على ثلاثة أبواب: حوادث محلية - النهضة الشرقية - حوادث أمس واليوم. وفي الصفحة الرابعة مقالات في الوعظ والإرشاد وإشهار خصوصا للمطبعة التي تطبع الجريدة وهي باللغة الفرنسية: المطبعة الفلاحية والتجارية لصاحبها "مونتيجي وديجويلي". وفي هذه الصفحة اسم المسؤول المتصرف في الجريدة "le gérant" وهو عمر بن محمود. وفيها أيضا "رسالة من مصر" بإمضاء "الجزائري".

وكل هذا يدل على أن الجريدة كانت تعطي اهتماما كبيرا لما يجري في الشرق الإسلامي.

هذه هي جريدة "الجزائر" في مهدها وهي لم تولد بعد ولم تظهر قط ولو ظهرت لكانت جريدة قيمة ولكن للأسف خانها ما هو قيام كل شيء المال.

ولعل من المفيد أن نذكر أنه في سنة 1925 أصدر الشيخ السعيد الزاهري جريدة باسم "الجزائر" وليست هناك علاقة بين الجريدتين. أما عمر راسم فإنه لا يدركه الفشل بفشل جريدته يواصل نشاطه وفي سنة 1911 يلتحق بجريدة "الحق" الوهرانية ويقوم بالإشراف على القسم العربي منها.

ما هي جريدة الحق؟

هي جريدة باللغة الفرنسية، صدرت بمدينة وهران في 15 أكتوبر 1911 ومديرها هو "طاييه" من الأحرار الفرنسيين الذين يقتربون من المسلمين ويميلون إلى التفاهم معهم "ومعاونتهم" للخروج من عزلتهم وفقرهم. والغربة أن هذه الجريدة أعطت لنفسها اسما آخر وهو "المعري الصغير" وهي أسبوعية وتقول عن نفسها أنها تأسست للدفاع عن مصالح المسلمين وأخذت شعارا لها قول نابليون الثالث مخاطبا المسلمين في الجزائر: "أريد أن أجعلكم تشاركون أكثر في إدارة بلدكم".

و"الحق" تندرج في التيار السياسي المعروف في هذه الفترة بتيار "المشاركة" الذي كان يؤيده الحاكم العام جوناو وتسانده بقوة جريدة الأخبار المشهورة.

وتقول هذه الجريدة "الحق" في افتتاحيتها في العدد الأول المؤرخ في 15 أكتوبر 1911: "... إننا نتفادى كليا الصراع بين الأجناس بل ندعو للتقارب بينها والتعارف... إن "الحق" تفتخر بأن تصبح همزة وصل بين الأوروبيين والعرب لأن مصالحهم مشتركة". وتقول في مقال آخر ظهر في العدد الثاني: "إن وقت العنف قد مر... إن أجدادكم قد استشهدوا بكل فخر في المعارك التي خاضوها من أجل الاستقلال فواصلوا هذا الكفاح في الميدان السياسي والاقتصادي..." وتضيف في مكان آخر: "مما لا شك فيه أننا لا نريد أن يتحول الفرنسيون إلى عرب! فكيف نريد أن يتحول العرب إلى فرنسيين؟ هذا مستحيل وليست فيه أية فائدة!"

هذا هو توجه جريدة "الحق" وحتى يتبين أكثر يجب أن نقول أنها كانت تعارض سياسة الاندماج التي كان يدعو إليها بعض الفرنسيين وعدد كبير من الأعيان المسلمين وبعض الصحف التي كانت تصدر باللغة الفرنسية مثل جريدة "الإسلام" والبعض ممن كان يعرف بـ "الشباب الجزائري" وهذا التيار الاندماجي كان يساوم هذه السياسة التي تعني المساواة في الحقوق والواجبات، ويقدم تعويضا سياسيا وهو قبول تجنيد المسلمين في الجيش الفرنسي، فكانت المعادلة: "نقبل التجنيد وتعطون المساواة".

كانت جريدة "الحق" ضد هذه السياسة وبالأخص ضد التجنيد. ولكي تعطي لصوتها صدى أوسع قررت إصدار صفحتين إضافيتين من جريدتها باللغة العربية وطلبت من عمر راسم أن يتولى إدارة هاتين

الصفحتين وقبل بذلك لأنه كان متفقاً مع سياسة "الحق" وكان يبحث عن منبر للتعبير عن آرائه خصوصاً في قضية التجنيد التي كان يعارضها بكل جوارحه.

فبدأ هذا القسم العربي من جريدة "الحق" وتحت إشراف عمر راسم يظهر في العدد 36 المؤرخ ب15 جوان 1912 وفي افتتاحية بعنوان "الحق أحق يتبع" يقول عمر راسم: "كل من يحب وطنه ويسعى في ارتقائه ومنفعة أبناء جلدته الذين يستحقون الرحمة والالتفات فليقرأ "الحق" ولينصر "الحق" و"الحق" أن يتبع..."

وكانت الصفحتان مبوبتان بأعمدة هي هكذا: المسائل الوطنية - العالم الإسلامي - الأخبار التركية - الهجرة.

وكانت أغلب المقالات التي كتبها عمر راسم تدور حول التجنيد والهجرة والهجوم على الاندماجين والمتفرنسين، والهجرة مقترنة بالتجنيد أو هي سببها، والمعروف أن قضية التجنيد لم يرض بها الشعب الجزائري الذي أثارت تخوفه منه وأخذ عدد كبير من المسلمين الجزائريين يهجرون الجزائر ويلتحقون بالمغرب وتونس والمشرق العربي لكي لا يمسه هذا التجنيد وصار هذا العدد في تزايد مستمر مما جعل السلطات الفرنسية تقيم حواجز لتمنعه ولكن بدون جدوى فأخذ عمر راسم يكتب ويطمئن وينشر ونجد في جريدة "الحق" هذا: "لما كانت الهجرة لا فائدة فيها والصبر ضرر يجب علينا أن نقول لإخواننا: "شدوا عزمكم واخرجوا من جهودكم وثقوا بالمستقبل إذ طال الزمان أم قصر ففرنسا تشفق عن أحوالنا..."

وبكل أسف يكتب عمر راسم في مقال بعنوان: "مسألة تجنيد الأهالي" "المسألة التي همت جميع مسلمي الجزائر وشغلت أفكارهم وأشعلت في قلوبهم نار اليأس والقنوت حتى أن جميعهم لو وجدوا للفرار سبيلا لما بقي في أرض الجزائر إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون: "ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك نصيرا..." ويضيف فيقول: "وأظهرت براهين لا تقبل الرد أن هذه المسألة ضارة بنا معشر المسلمين من الوجوه الدينية والسياسية والاجتماعية..." ويختتم عمر راسم فيقول: "كل من رضي بالعسكرية فقد انحرف عن الصراط السوي وعن أمته ودولته بل هو من الخائنين..."

ولقد كانت قضية التجنيد من أهم المعارك التي خاضها عمر راسم ويكاد يعطي لها صبغة دينية أكثر من سياسية ونراه يتردد في قضية الهجرة فهو يبررها ولكنه لا يرى فيها فائدة، ونراه من جهة أخرى يشعل حربا ضارية ضد أنصار التجنيد من النخبة الجزائرية فيقول: "قامت جماعة ممن تخلقوا بمفاسد التمدن الحديث وشروور الحضارة الجديدة وانتصروا للمشروع السيئ وأظهروا حبهم له ظنا منهم أن سبب انحطاطنا هو الدين... فهم في ضلال مبين..."

ويستمر عمر راسم طيلة سنوات في هذا الجهاد وعندما تتدلج الحرب العالمية الأولى وتقوم السلطات الاستعمارية بتجنيد المسلمين يخرج عمر راسم إلى الشارع ويقوم بنشر الملاحظات وبدعوة الشباب إلى

رفض التجنيد وهذا النشاط تسبب في اعتقاله ورميه في السجن لسنوات طوال...

ولقد استمر عمر راسم في جريدة "الحق" حتى اختفاء هذه الجريدة وكان ذلك في شهر أوت 1912 وكان آخر العدد الموجود في المكتبة الوطنية الفرنسية يحمل رقم 46 فقد أخرج عمر راسم من "الحق" إذا 11 عددا باللغة العربية وبهذا يعتبر نشاطه في "الحق" أكبر نشاط صحفي له، فجريدة "الجزائر" لم تظهر كما رأيناه من قبل أو ظهر منها ملحقين وجريدة "ذو الفقار" وهي جريدة أصيلة لم يظهر منها إلا أربعة أعداد، فحجم نشاطه الكبير هو بالتالي في جريدة "الحق"...

أما جريدة "ذو الفقار" فهي التجربة الثالثة الصحفية لعمر راسم وابتدأته في شهر أكتوبر 1913 يعني سنة تقريبا بعد اختفاء جريدة "الحق" ولم تعرف جريدة "ذو الفقار" استمرارا بل توقفت بعد العدد الثاني لمدة ثمانية أشهر لتظهر من جديد في شهر جوان 1914 لمدة عديدين فقط لتختفي من جديد وسبب الاختفاء كما أشرنا إليه من قبل هو موقف عمر راسم من قضية التجنيد واعتقاله قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى.

ومع عنوان الجريدة فإن عمر راسم يشير إلى أن جريدته "عبدوية" وهي نسبة إلى المصلح "محمد عبده" وأنها اشتراكية وهو مذهب كان شائعا في ذلك الوقت.

ولكي نتعرف أكثر على هذه الجريدة نرجع إلى الافتتاحية التي نشرها عمر راسم في العدد الأول تحت عنوان "مقاصد الجريدة": "ذو الفقار أسس لنصرة السنة المحمدية ومقاومة البدع الشيطانية التي أوقعت المسلمين والمسلمات في المهالك. "ذو الفقار يبارز الأغنياء المقصرين... ذو الفقار يأمر وينهى وينذر ويحذر... ذو الفقار جريدة عبدوية إصلاحية".

وفي هذه الافتتاحية يضيف عمر راسم فيقول "وما اتخذته الجريدة" مبدأ لها بعدها عن السياسة لأنها مهما دخلت في شيء لربما أفسدته"...

وهنا أريد أن أتوقف عن هذه القضية التي عالجها عمر راسم: فمما ذكرناه سابقا أن عمر راسم قد اتخذ مبدأ له وهو ابتعاده عن السياسة وقد يبدو هذا غريبا في حق شخص له نشاط صحفي ملحوظ، فلا بد من تفسير هذا الموقف وهذا التفسير هو أن عمر راسم يسير بلا شك إلى نوع من السياسة التي كانت تقوم بها جماعة من الأعيان والنخبة التي كانت تطالب الحكومة الفرنسية ببعض الحقوق السياسية والتي كانت تساوم بقضية التجنيد كما رأيناه من قبل وهم المعروفون بالتيار الاندماجي والذين كان يرى فيهم عمر راسم خطرا على الأمة الإسلامية فيقول في العدد 44 من جريدة "الحق": "قام من بيننا أناس تخلفوا بمفاسد التمدن الحديث وشروا الحضارة الجديدة... ووجهوا إرادتهم إلى ... تزويق صدورهم بنياشين الفخفة والقبح كل ذلك ممن نتائج التقاليد المضرة بالدين والوطن

والاقتداء بسياسة الغدر والتقلب التي يأبأها الشرف..." "إخواني
إنكم لستم منهم وليسوا منكم فارقوكم باختيارهم وفرقوكم
بمكائدهم..."

والمعلوم أن هذا النوع من السياسة هو الوحيد الذي يرفضه عمر
راسم ويتعد منه ويطلب من المسلمين أن لا يساندوه ويختتم فيقول:
"لأنكم إذا رضيتم بهم فقد رضيتم بالكفر بعد الإيمان والجحيم
بعد النعيم والذل بعد العز..."

هذا هو موقف عمر راسم من السياسة ونلاحظ أن عمر بن قذور
الجزائري كان يسانده ويؤيده وقد فتح جريدته "الفاروق" عندما
صدرت للقيام بحملة قوية ضد هذه الجماعة التي يصفها عمر راسم
بأنها خرجت عن الدين.

ومما يلاحظ أن هذا الموقف يعني "الابتعاد عن السياسة هو
الموقف الذي دعا إليه الشيخ محمد عبده عندما زار الجزائر في بداية
القرن العشرين واتصل بمجموعة من العلماء الذين كانوا يقومون
بتحرير جريدة "المغرب" منهم الشيخ بن سماية وبن شنب وبن زكري
وغيرهم ونصحهم بالابتعاد عن السياسة ولعلنا نضيف فنقول أن هذا
الموقف تبنته جمعية العلماء المسلمين عند تأسيسها في سنة 1931.

وختاماً أريد أن أشير إلى أن عمر راسم مع عمر بن قذور كانا
من الرواد الذين مهدوا الطريق لظهور جمعية العلماء المسلمين مع
وجود خلاف طفيف وهو أن عمر راسم كان يدعو إلى الإصلاح
وتبني الاشتراكية في الإسلام وهو موضوع آخر، ونكتفي اليوم

فقط بالإشارة إلى أن الاشتراكية التي كان يدعو إليها عمر راسم،
هي بالدرجة الأولى محاربة الأغنياء الذين يبخلون بثروتهم ومحاربة
الظلم السائد في العالم والعبودية المتحكمة في الأعناق.
هذا كلامه نكتفي به اليوم ونحيي تحية حارة جهاده
واجتهاده. والسلام عليكم ورحمة الله.